اللغة العربية

للدكتور فؤاد حسنين
الأستاذ بجامعة القاهرة سابقاً
والأستاذ المحاضر بالمعهد

نفهم تحت هذا اللفظ المفردات التى شقت طريقها إلى سائر لغات شبه الجزيرة وغيرها من الأقاليم التى استوطنتها الشعوب العربية منذ فجر التاريخ حتى اليوم مثل الأكادية والكنعانية والأرامية والحبشية وما إليها . كذلك نعنى باللغة العربية اللغة التى دون فيها تراث سكان قلب الجزيرة وشمالها فى العصر الجاهلى وأنزل فيها القرآن الكريم وسجلت فيها الآثار الدينية والأدبية ، منذ نزول الوحى حتى يومنا هذا . واللغة العربية وإن كانت قديمة جداً إلا أن أقدم مصدر وصلنا أطلق عليها لفظ (عربية) قد يكون هو القرآن الكريم .

وتقوم لغة التخاطب العربية ولغة بعض الآثار الأدبية التى وصلتنا دليلا على أن هذه اللغة عبارة عن خليط من عدة لغات ولهجات عربية قديمة تمخضها فى صدر الإسلام مجموعتان شهيرتان شرقية أو تميمية وغربية أو حجازية أو قرشية . وفى الشرقية نلمس آثار اللغات العربية الشرقية البائدة مثل الأكادية ، وفى الغربية نلحظ الأثرين الكنعانى والعربى الجنوبى .

وقد عثر بعض المستشرقين على آثار لهجات عربية شمالية اصطلح على تسميتها اللحيانية والثمودية والصفوية والأوجاريتية حسب آخر الآراء .

أما اللهجة اللحيانية فنسبة إلى آل لحيان الذين سكنوا شمال الحجاز قبل الميلاد وكانت عاصمة بلادهم مدينة (ددن) الوارد ذكرها فى كتاب العهد

القديم أو الذى يطلق عليه تجاوزا اسم التوراة . أما (ددن) فهى المعروفة لنا باسم (العلا) ويرجع الفضل فى العثور على كثير من الكتابات اللحيانية إلى أمثال (هوبر Huber) و (أويتنج Euting) حيث عثر الأخير عام١٨٨٩ فى (العلا) ، شمال بلاد العرب ، على كتابات قيمة جدا . وفيما بعد نجد أمثال (جوسن Jaussen) و (سافنياك Savignac) وقد عثر كلاهما فى المنطقة الواقعة فيما بين العلا والحجر (مدائن صالح) على كتابات اختلف العلماء فى تاريخها . كما عثر أيضاً على كتابات لحيانية أخرى ترجع إلى عصر الملوك الدادانيين ويرجع تاريخها فيما يظن إلى الفترة الممتدة بين القرنين الثامن والخامس قبل الميلاد .

أما ظهور اللحيانية واللحيانيين فى شمال الجزيرة فترجحه الكثرة المطلقة من المعنيين بدراسة اللغات العربية وتاريخ العرب القديم إلى البعث العلمى الجديد الذى ظهر فى شمال بلاد العرب فى القرن الثانى ق. م. وذلك بفضل الدولة المعينية ومستعمراتها التى كانت منتشرة فى شمال الجزيرة العربية ، ولا أدل على قوة هذا الأثر المعينى من أن كثيراً من الكتابات التى عثر عليها العلماء مدونة فى الخط المعينى الجنوبى ولو أن لغتها عربية شمالية ، ومع مضى الزمن أخذ الخط اللحيانى يظهر ويتطور حتى أصبحنا نفرق بين خط لحيانى قديم وآخر أقدم منه .

ومن دراسة هذه الكتابات نخرج بنتيجة نقررها دون حرج أو تردد وهى أن اللغة اللحيانية تتفق والعربية الإسلامية فى كثير من الخصائص النحوية والصرفية . ففى اللحيانية نجد الإعراب والإفراد والتثنية والجمع ، كما تفرق اللغة بين جموع التكسير والتذكير والتأنيث وفى الإشارة تميز بين العقلاء وغير العقلاء كما تستخدم (ذو) لمعنى صاحب وتجريها إجراء العربية القرآنية وكما نستخدم نحن أدوات الإشارة بسيطة ومركبة كذلك الحال هنا فى اللحيانية رما يقال عن الإشارة يقال أيضاً عن أدوات الوصل .

وإذا تركنا الإعراب والتذكير والتأنيث والإشارة والوصل وانتقلنا إلى الفعل وجدنا هنا أوزانه وحالات إعرابه المختلفة من رفع ونصب وجزم وإن امتازت اللحيانية فى فترة ما بشيوع صيغة (هفعل) إلا أن هذه الصيغة لم تلبث إلا أن اختفت وحلت محلها صيغة (افعل) . وفى هذه اللغة العربية القديمة نجد أيضاً البناء للمعلوم والمجهول كما نجد صيغة (فعالى) ولكنها بالياء لا بالكسرة كما هو الحال فى العربية القرآنية .

أما الاسم فيعرف وينكر ، وأداة التعريف هى(ها) وفى اللحيانية المتأخرة نجد أيضاً (ال) والاسم مذكر ومؤنث وغير المؤنث اللفظى يؤنث الاسم بعلامة التأنيث (ة) .

ومعظم الجمل التى وصلتنا اسمية . وقبل أن أختم القول فى اللحيانية أحب أن أشير إلى أن هذه اللغة استكملت أبجديتها أعنى أننا نجد فيها سائر الإشارات الدالة على مختلف الأصوات من (ث خ ذ ض ظ غ) كما سهلت الهمزة أحيانا.

وخالفت العربية القرآنية أحيانا فى العدد فاللحيانية تقول مثلا(أربعو عبد) أى أربعون عبدا و(عشر أيام) .

* * *

أما اللغة الثمودية فنسبة إلى الشعب العربى القديم المعروف باسم(ثمود) ولعل أقدم نص جاء فيه ذكره هوذلك النص الأكادى الذى يرجع إلى القرن الثامن ق . م . والذى يتحدث فيه الملك (سرجون) عن انتصاراته، فقد عدد الملك الظافر أسماء الشعوب التى أخضعها ومنها الشعب الثمودى ، ومن ثم تمضى عدة قرون دون أن نجد ذكرا تاريخيا لهذا الشعب حتى يأتى القرن الخامس الميلادى فنقرأ فى الوثائق البيزنطية أن القيصر البيزنطى كان يستعين بعدد من الثموديين فى جيشه،ثم تمضى فترة أخرى حتى يأتى القرآن الكريم ويحدثنا عن ثمود كشعب عربى أرسل الله إليه نبيه صالحاً .

وظل أمر هذا الشعب مجهولا ، كما ذهب الشراح والمفسرون مذاهب عدة فى فهم هذا الشعب وحقيقته حتى جاء النصف الثانى من القرن التاسع عشر

فظهر الرحالة المشهور (شارل دوتى Ch. Doughty) وقام برحلته المشهورة إلى الحجاز عام ١٨٧٦ — ١٨٧٧ م وسار حتى بلغ الطائف وجمع عدداً كبيراً من النقوش نشرها عام ١٨٩١ فى باريس . وبعد (دوتى) أقبل عدد كبير من المستشرقين على البلاد العربية ونخص بالذكر منهم (جوسن) ، و (سافنياك) فقد قاما برحلتين هامتين أولاهما عام ١٩٠٧ وثانيتهما ١٩٠٩ — ١٩١٠ وقد جمعا كثيراً من النقوش والمعلومات التى أفادت تاريخ البلاد العربية ولغاتها .

وغير هؤلاء نجد أمثال (ب. موريتس B. Moritz) و (ر. بوتين R. Butin) و (هوبرت جريمه H. Grimme) و (هنس روتست H. Rhotest) و (ى. ى. هس J. J. Hess) و (ج. ريكمنز J. Ryckmans) و (ف. ف. وينت F. V. Winnett) وغيرهم .

أما الكثرة المطلقة من هذه الكتابات الثمودية فقد عثر عليها فى (الجوف) و (حايل) وما حولها ، وعلى طول الطريق الممتد بين (حايل) و (تيماء) و (العلا) مارا بالحجر ومدائن صالح وجنوبا الطائف والطريق المعروف الآن باسم درب الحج الموصل إلى مكة وشمالا تبوك وما جاورها ، كما عثر على بعض الكتابات أيضاً فى أم الرصاص بالأردن وإقليم الصفا وفى شرابيل بشبه جزيرة سيناء وجهات أخرى متفرقة بالقرب من العقبة وشمالا عند صيدا .

ومن انتشار هذه الكتابات الثمودية نقرر أن هذا الشعب عاش فى شمال الجزيرة ولو أن ذلك لا يمنع من القول إنه أصلا قد يكون جنوبيا يمنيا ومن ثم رحل إلى الشمال .

ومن هذه الكتابات الثمودية يتضح لنا أيضاً أن الشعب الثمودى كان شعبا مستقراً متحضراً يحترف الزراعة وتربية الماشية والصيد وتربية النحل . كما أنه كان شعبا متدينا له كثير من دور العبادات وبيوتها ، كما كان له مجمع آلهة كمجمع مكة ، ومن بين آلهته نجد عدداً كبيراً من معبودات العرب الجنوبيين

أعنى المعينيين والسبائيين مثل (عثيرت) آلهة الشمس القتبانية و (سين) إله القمر الحضرمى و(عم) إله القمر القتبانى، كما عبد الثموديون بعض آلهة سكان قلب الجزيرة أمثال (ود) و (سميع) و (هبل) و (ياغوث) و(إله) و(اللات) و(حول) و(مناة) و(مناف) وغيرها .

ومن دراسة طقوس وأسماء هذه المعبودات واشتراك أكثر من شعب عربى فى تقديسها نتبين المستوى الروحى العام الذى كان سائداً فى الجزيرة العربية قبل الإسلام ، كما ندرك الخطوات السريعة التى خطتها الشعوب العربية للتوحيد أولا والاتحاد ثانيا .

أما الخط الثمودى فخط عربى قديم أعنى ليس كتابة دخيلة كتلك التى نجدها عند الأكاديين ألا وهى المسمارية ، وقد استخدمها غير البابليين الأشوريين الشعب العربى الأوجاريتى . وقد عاون العلماء على حل رموز الخط الثمودى إلمامهم بالخط المعينى السبائى أولا والصفوى ثانيا . واختلف العلماء حول أصالة الخط الثمودى، فذهب نفرمنهم (هليفى) و(هوبرت جريمه) إلى أن هناك ثمودية قديمة وهى تلك التى عثر عليها فى الحجاز وأخرى حديثة وهى التى وجدت فى نجد . وذهب هؤلاء العلماء إلى القول بأن الثمودية القديمة ترجع إلى حوالى عام ١٠٠٠ ق. م . إلا أن هذا التقسيم لايزال قيد البحث.

وبالرغم من حداثة الاهتمام بهذه الكتابات فإننا نستطيع على ضوئها معرفة اللغة الثمودية معرفة تعاوننا على تاريخ اللغة العربية القرآنية .

فمن ناحية الأبجدية فقد استكملت الإشارات التى تمتاز بها العربية القرآنية على الكنعانية التى لاتشمل إلا على اثنتين وعشرين إشارة هى : « أبجد هوز حطى كلمن سعفص قرشت » بينما أضافت إليها العربية القرآنية وغيرها « ثخذ ضزغ » .

وغير الأبجدية تتفق الثمودية مع عربيتنا فى الإبدال والإعلال والضمائر وأدوات الإشارة والموصول والظرف ، كما تغلب على مفرداتها الأصول

الثلاثية سواء فى الأفعال أو الأسماء ، كما أن من أسمائها المذكر والمؤنث والمفرد والمثنى والجمع ، والجمع منه السالم ومنه التكسير . كما جاءتنا فيها صيغة (فعيل) الدالة على التصغير وياء النسب و (هاء) التعريف .

أما الفعل فعلاوة على حالاته وصيغه وأوزانه المختلفة التى نعرفها فى لغتنا الفصحى فيمتاز أيضاً مثل اللحيانية بصيغة (هفعل) .

* * *

أما الكتابات الصفوية فقد عثر على آلاف منها فى منطقتى حوران والصفا شرق دمشق لذلك نسبت الكتابة إلى المكان الأخير ، ولو أنها وجدت فى عدة أماكن أخرى . والصفوية بالرغم من اختلاف خطها عن كل من اللحيانى والثمودى إلا أنها تكاد تتفق معهما فى كل شىء وهى بدورها قريبة جداً من العربية القرآنية ، ويرجح أن النقوش التى وجدت فيها ترجع إلى ما بين القرنين الثالث والسادس الميلاديين .

والنتائج التى خرجنا بها من هذه اللغات العربية الشمالية تكاد تتفق تماما وتلك التى انتهى إليها المختصون فيما يتعلق بالأوجاريتية .

* * *

هذه هى العربية الشمالية كما جاءتنا فى الكتابات والمخربشات ، لكن هناك مصدراً آخر جاءنا بمحصول عربى وفير ألا وهو مصدر الرواية فعن طريقها وصلنا الشعر والأخبار وبخاصة تلك المتصلة بأيام العرب . ومن الشعر الجاهلى صحت نسبته لقائليه أولم تصح نتبين المرحلة التى بلغها الشعر العربى عروضا وفنونا قبيل ظهور الشعر الإسلامى . ومن لغة أيام العرب والأخبار نتعرف إلى فن من فنون النثر هو مرتبة بين النثر الفنى العالى ولغة التخاطب الدارجة وأسلوب هذا الفن يشبه كثيراً لغة الصحافة والإذاعة فى عصرنا الحديث .

لكن من حسن حظ العربية والناطقين بها أن بعث الله محمداً للناس كافة نبيا ورسولا وأيده بآية هى خير ماعرفته العربية منذ أن ظهرت للوجود أعنى القرآن الكريم . فهذا الكتاب العربى لغة وأسلوبا وفنا آية الله الناطقة على سمو النثر العربى فى ذلك العصر من ناحية ونضج العقلية العربية من ناحية أخرى، وأن شعبا يخاطب بمثل هذه اللغة لدليل قوى على المرتبة الأدبية الرفيعة التى بلغها القرآن الكريم بما اشتمل عليه من أدب رفيع وقصص بديع وتقنين وتشريع ، إلى دعوة دينية سامية لخير أثر للعربية والعروبة حتى هذا العصر .

ولم يقف أثر لغة الوحى عند النبى (صلى الله عليه وسلم) وصحبه والمسلمين الأولين من مهاجرين وأنصار بل نجد هذه الرسالة تغير دينا ولغة وأدبا . أما الدين فقد جمع أتباعه على عبادة إله واحد صمد لم يلد ولم يولد ، كما عنى بالتقنين المدنى فنظم حياة المسلمين ونهض بهم . أما اللغة فقد عنيت بمصادر جمع الشارد والوارد من مفرداتها ، كما سجل قواعدها نحوها وصرفها وعنى بالجملة تركيبا وبديعا وبيانا فكان القرآن الكريم وما زال إلى جانب ناحيته الدينية كتاب لغة وأدب ، وكتب للعربية الخلود فلم يصبها ماأصاب غيرها من اللغات القديمة كالهيروغليفية واللاتينية واليونانية من تفكك وتحلل وزوال ، وستظل هذه العربية حية مادام فى المعمورة مسلم .

أما من الناحية الأدبية فقد وجه القرآن الكريم الأدب العربى وجهة جديدة فبعد أن كان العرب منصرفين إلى الشعر تحولوا تدريجيا إلى النثر ، وظهر من بينهم كتاب إلى جانب الشعراء . ولم يقف أثر القرآن الكريم عند هذا فقد كان عاملا قويا فى جمع شتات القبائل العربية حول دين واحد ولغة واحدة وثقافة واحدة وهدف واحد ، وكانت النتيجة المحتومة لهذا الاتحاد أن تزاوجت اللهجات فظهرت اللغة العربية الإسلامية الجديدة التى لهج بها عرب الجزيرة كافة ، وأصبحوا وللمرة الأولى فى تاريخهم يفكرون فى لغة واحدة ويتأدبون بأدب واحد ويدينون بدين واحد ، وأصبحوا شعبا واحدا وجد فى نفسه

الحيوية والمؤهلات الاجتماعية التى أهلته لأن يسود العالم فترة طويلة من الزمن .

فالقرآن الكريم وهودستور العرب والمسلمين دفع بهم خارج الجزيرة فانتشروا فى بلاد الفرس والروم وحرروا أطراف الجزيرة من الأجانب كماعبروا آسيا إلى أفريقيا ، ولم يمض قليل من الزمن حتى ثبتوا أقدامهم فى وادى النيل واستولوا على شاطىء بحر الروم الافريقى ، لكن فرحة التحرير ونشوة النصر ولذة الفتح لم تله قادة العرب عن الاحتياط لصيانة العروبة والعربية فالجيوش الإسلامية قد صهرت القبيلة العربية وحولتها إلى قوة متدفقة تؤمن بالعروبة لابكلب أو قيس تميم أوقريش ولكنها العروبة الخالصة والعربية الصافية التى امحت فيها خصائص اللهجات وذابت رواسب اللغات التى نطقت بها شعوب الجزيرة العربية فى العصور السابقة فخشى قادة المسلمين على هذا النصر الجديد من الانتكاس فحرم القواد على الجنود الإقامة بين السكان الأصليين أو الاختلاط بهم محافظة على الروح العسكرية العربية من الانحلال ، كما أمنوا اللغة الإسلامية الجديدة الناشئة من عجمة الفرس ورطانة البيزنطيين فأسسوا فى مصر الفسطاط وحشدوا فيها الوحدات المختلفة للجيوش العربية .

وما فعله العرب بمصر فعلوه فى الأقطار الأخرى ، لكن اهتمام الفاتحين بأمر هذه الأقطار اضطرهم إلى الاتصال بالسكان الأصليين ، ونشأ عن هذا الاتصال ظهور لغة للتفاهم . وقد كان قيام هذه اللغة على حساب فصاحة العربية وخصائصها ، وذلك لأن لغة الضاد لها من الخصائص الصوتية والقواعد النحوية مالايوجد نظيره فى اللغات الأخرى ، حتى أولئك الأجانب الذين أخذوا أنفسهم بدراستها عجزوا عن تجويدها إذ تنقصهم السليقة العربية والإحساس النحوى المرهف ، لذلك أخذت تظهر إلى الوجود لهجات غريبة جديدة لا تستمد أصولها من العربية الفصحى بل من اللغات الأجنبية المحلية ، فهى مثلا مصرية فى مصر آرامية فى الشام فارسية فى العراق ، ومع تتابع الزمن أخذت هذه اللهجات تنمو وتترعرع حتى قضت بدورها على

اللغات الأصلية المحلية والتى استمدت منها سابقا بعض مقوماتها وحلت محلها ؛ ففى مصر مثلا قضت على القبطية فى القرن الثانى عشر الميلادى وأصبحت العربية المصرية إلى جانب العربية الإسلامية لغة للتخاطب والمعاملات والدواوين .

وساعد على قيام هذه اللهجات العربية المولدة الانحلال الذى طرأ على الدولة العباسية نهائيا فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) وقيام دويلات إسلامية مستقلة . وهذا الاستقلال السياسى تبعه استقلال لغوى محلى فقد انضمت لهجات كل إقليم بعضها إلى بعض وتألفت منها مجموعات من اللهجات تمتاز كل مجموعة بخصائص نحوية وصوتية وصرفية ، وهذه اللهجات الإقليمية تجمعت فى العراق والشام ومصر وشمال أفريقيا والأندلس ، وكانت من الأهمية بحيث أن بعض رحالة المسلمين فى العصور الوسطى نبه إليها وعنى بها كما صنع المقدسى فى وصف رحلته التى قام بها فى العالم الإسلامى فى القرن الرابع الهجرى .

وكما أن العربية الإسلامية ساهمت فى خلق العربية المولدة فإن الأخيرة أثرت بدورها فى العربية الإسلامية التى كانت مستعملة عند العرب الخلص المقيمين فى البلاد المفتوحة ، وهكذا تعرضت العربية الإسلامية للأخطار التى كان يخشاها مسلموا صدر الإسلام . ففشى فيها اللحن وكاد يتعطل الإعراب وأصبحت المولدة لاتهدد النثر فحسب بل الشعر أيضاً . لذلك اشتد الخلاف بين علماء اللغة العربية حول هذا التفاعل بين اللغتين وانتهوا أخيراً إلى وجوب العمل على تنقية العربية من الدخيل ووضع كتب فى القواعد والنحو .

وكانت النتيجة المحتومة لذلك ظهور اللغة العربية المولدة كمنافسة ومنافسة قوية للعربية الإسلامية ، واختصت كل من اللغتين بناحية من نواحى النشاط العقلى فرضيت العربية الإسلامية أن تكون لغة العلم والعلماء وتنازلت لمنافستها

عن السوق والسوقة . وقد تمت هذه القسمة فى أواخر القرن الثانى الهجرى ومنذ ذلك العصر والتنافس قوى جبار بين اللغتين حتى يومنا هذا . ولولا القرآن الكريم أولا والمصالح السياسية ثانيا لقضت المولدة على الإسلامية وبخاصة بعد أن استكملت كل مقومات اللغة الحية فابتدعت فنون الشعر الحديثة من مواليا ودوبيت وكان كان وزجل وموشحات وغيرها واغتنى نثرها بمختلف الألوان التى يحتاج إليها المفكر العربى الحديث .

لكن يجب ألا يتبادر إلى أذهاننا أن العربية الإسلامية ظلت كما كانت فى صدر الإسلام بل تأثرت بالبيئة الإسلامية الجديدة ، وأخذت تتطور هى أيضاً لكن فى حدود ضيقة . وهذا التطور الأدبى لاءمه تطور نحوى تصوره لنا مسائل الخلاف بين الكوفة والبصرة ، كما يصور لنا الجاحظ وكتبه المرتبة الرفيعة العالية التى بلغتها العربية الإسلامية فى عصرها الذهبى الممتد من القرن الثانى إلى منتصف القرن الثالث الهجرى . وإذا كان الجاحظ يمثل الكتاب المبرزين فى ذلك العصر فأبو تمام يأتى فى مقدمة شعرائه .

لكن ماكادت شمس القرن الثالث الهجرى تغرب وتميل كفة الأتراك فى المجتمع الإسلامى وبخاصة أيام الخليفة المعتصم حتى بدت على العربية الإسلامية عوامل التدهور والاضمحلال ؛ فالأتراك وبخاصة رجال الجيش كانوا يجهلون العربية إسلامية ومولدة وكان حظهم من الثقافة العامة ضحلا ، لذلك سرى الضعف إلى مختلف الطبقات حتى إلى القصر والدواوين ، وهذا ماحدا بابن قتيبة فى أن يكتب أكثر من كتاب لتعليم الكتّاب وموظفى الديوان التحرير والإنشاء .

ولم ينج من هذا الوباء اللغوى الشعراء أنفسهم فشتان بين شعر البحترى وابن الرومى من ناحية وبين شعر سلفهما أبى تمام من ناحية أخرى . وهذه الهاوية التى تردت فيها العربية على يد رجال الجيش من الترك هى من البواعث القوية التى دفعت حركة الاعتزال إلى الظهور والعناية بالعربية والأخذ بيدها .

وليست العربية الإسلامية هى الوحيدة التى أصابتها هذه الضربة على يد هؤلاء العسكريين بل العربية المولدة أيضاً ، وقد أدى هذا الضعف العام إلى أن النحويين أنفسهم كانوا فى ختام القرن الثالث الهجرى عاجزين عن استخدام العربية الإسلامية اللهم إلا فى الأندية الخاصة، ورسائل ثعلب بما فيها من مخالفات نحوية صريحة ، إلى جانب لحن الأحول والأخفش الأصغر خير صورة تمثل عربية ذلك العصر . وقد صور لنا قدامة بن جعفر الحالة التى بلغتها العربية فى ذلك الوقت فذكر فى الكتاب المنسوب إليه وهو نقد النثر ما نصه :

« وأما المواضع التى يجب أن يستعمل اللحن فيها ويتعمد له فى أمثالها ويكون ذلك مما يوجه الرأى فهو عند الرؤساء الذين يلحنون والملوك الذين لايعربون فمن الرأى لذى العقل والحنكة والحكمة والتجربة ألا يعرب بين أيديهم وأن يدخل فى اللحن مدخلهم ولايريهم أن له فضلا عليهم ؛ فإن الرئيس والملك لا لايحب أن يرى أحداً من أتباعه فوقه ، ومتى رأى أحدا منهم قد فضله فى حال من الأحوال نافسه وعاداه وأحب أن يضع منه » . (طبع بولاق ص ١٦٢) .

ونتيجة أخرى من نتائج هذا التطور الذى وقع للعربية ؛ انصراف اللغويين والنحويين عن رجال البادية وعدم الرجوع إليهم فيما يعرض لهم من مشاكل ؛ وذلك لأن القوم فى ذلك العصر كانوا يعتبرون ألفاظ البادية نوعا من التشدق والتقعر ؛ لذلك انصرف اللغويون عن الجمع إلى الدرس والبحث والنقد لتعليل القواعد أولا وتخريج الشواذ ثانيا .

ومن أوائل العلماء اللغويين الذين سلكوا هذا الطريق ابن جنى الذى توفى فى أواخر القرن الرابع الهجرى ، فهذا العالم لم يقف عند البحث والتحليل بل أخذ نفسه بنقد الأعراب واتهم بعضهم فى لغته فذكر فى خصائصه أن الأعراب قد يقعون فى اللحن كغيرهم . ونفس هذه النظرة الناقدة أثرت فى كثيرين من معاصرى ابن جنى وخلفه .

وفى أواخر القرن الرابع أيضاً ظهر السلجوقيون وأسسوا دولة حكمت حتى منتصف القرن السابع الهجرى وقد تمكن هؤلاء الأتراك من الحكم والسلطان ، كما حلت الفارسية محل العربية كلغة للقصر وأخذت تناهض العربية وتنافسها حتى فى الأدب . ولولا أن العربية هى لغة الإسلام ولولا أن السلاطين أيقنوا أن بقاءهم فى الحكم رهن باحترام الإسلام ورجاله ما عنى السلاجقة بالقضاء ورجاله ولا الإدارة والقائمين عليها ، لذلك أخذوا منذ أواسط القرن الخامس فى تأسيس المدارس لتخريج رجال القضاء والإدارة . ولعل أشهر مدرسة عرفها ذلك العصر فى الشرق هى المدرسة النظامية ببغداد والتى أسست عام ٤٩٥ هـ وتولى التدريس بها نخبة من أفاضل العلماء ولغوى ذلك العصر أمثال التبريزى وعلى بن زيد والجواليقى .

وفى القرن السادس الهجرى ظهر أمثال الحريرى صاحب المقامات ، ودرة الغواص فى أوهام الخواص ، ومن رسالته الأخيرة ندرك أنه كان من الحريصين على تنقية اللغة من الأخطاء والمحافظة عليها من اللحن .

ومن مؤلفات رجال ذلك العصر تتضح لنا الحالة التى آلت إليها العربية ، كما أن جهل القوم بقواعد العربية دفعهم إلى العجز عن التفرقة بين حالات الإعراب المختلفة من رفع ونصب وجزم ، كما انقرضت صيغ وحلت محلها أخرى .

وهذا التدهور الذى انحدرت إليه العربية كان طبيعيا وذلك بسبب الانحلال السياسى والاضطرابات الداخلية والحروب الصليبية . فكل هذه العوامل مجتمعة صرفت القوم عن اللغة والعناية بها .

ومما زاد الطين بلة الغزو المغولى فقد أصاب من العروبة والعربية مقتلا عندما اكتسح المغول بغداد عام ٦٥٦ هـ ، ولولا قيض الله للإسلام والعروبة مصر التى ردت المغول على أعقابهم وأهلكتهم فى الشام وطهرت البلاد منهم لأصبح الحال غير الحال الذى نحن عليه الآن ، وأن مصر بنصرها هذا

وانتصارها للعروبة والعربية انتزعت زعامة العالم الإسلامى لنفسها وأصبحت فى عهد السلاطين المماليك الدولة المرموقة والأمة المهابة وبخاصة بعد أن انتصرت على الصليبيين وشردتهم .

مميزات اللغة العربية

وتمتاز اللغة العربية القرآنية عن أخواتها بمميزات أهمها :

١ ــ أداة التعريف :

لاتعرف الأكادية والحبشية أداة خاصة وتستخدم الأرامية (الألف) فى نهاية الكلمة المراد تعريفها . وتستعمل الكنعانية الحرف (ه) مع تشديد الحرف الذى يليه مالم يكن حرفاً حلقيا فيستعاض عن التضعيف بالمدالتعويضى أو التضعيف التقديرى .

وفى العربية الجنوبية ولهجة نجد تستخدم الطمطمانية ، كما تلحق السبائية (النون) أحيانا بالمعرف.

أما اللغة العربية فتتفق والكنعانية إذ نجد بعض اللهجات العربية الشمالية كالثمودية واللحيانية والصفوية تستخدم (ه) أو (ه ن) أو(ه ل) كما نجد لهجات أخرى كالحجازية تستخدم (ال) .

٢ ــ يجمع المذكر عادة بإضافة (ون) رفعا (ين) نصبا وجرا و(و) أو (ى) فى حالة الإضافة .

٣ ــ جموع التكسير .

٤ ــ التثنية مضطردة فى العربية القرآنية بينما نجد آثارها فى سائر اللغات العربية الجاهلية .

٥ ــ الإعراب .

لكن يجب ألا يتبادر إلى أذهاننا أن هذه المميزات لازمت عربيتنا منذ وجودها حتى اليوم فنحن لا نستطيع أن نعرف إلى أى حد تتفق العربية

كما وصلتنا قبيل الإسلام والعربية السابقة لها والتى حفظت لنا بعض آثارها فى اللغات العربية الأخرى ، وذلك لأن هذه الآثار اللغوية القديمة إن دلت على شيء فعلى تنوع الصيغ وتعدد الحركات وذلك لأن العربية القرآنية كانت على اتصال مستمر باللغات العربية الجاهلية الأخرى فساعدها هذا الاتصال على الاحتفاظ ببعض مفردات وخصائص شقيقاتها التى اختفت من مسرح الحياة الرسمى وظلت حية بين طبقات الشعب؛ فنحن مازلنا نجد فى العربية مثلا وزن (هفعل) وهووزن كثير الورود فى الكنعانية ويكاد يختص بها مثل (هراح) إلى جانب (اراح) و(هراق) إلى جانبي (أراق) و(هراد) إلى جانب (أراد) .

كذلك مازلنا نجد فى عربيتنا صيغتى (شفعل) و(سفعل) وهاتان صيغتان أكاديتان مثل(شحذ) فأصلها (ش وحذ) وشحذ السكين أحده ،و(حذ) أى أسرع قطعه . وكذلك (شحص) فأصلها (ش وحص) وحص الشعر حلقه وأذهبه ، وفى الحديث فجاءت سنة حصت كل شيء أى أذهبته . كذلك (شخر) أصلها (ش وخر) وخر الماء خريرا صات . وخر النائم غط . وفى العربية الدارجة مازلنا نجد(شرمط) وأصلها (ش ورمط) ويقال رمطه عابه وطعن عليه.و(شندل) أصلها (ش وندل) من(ش ونذل) والنذل الخسيس من الناس المحتقر فى جميع أحواله .

ومن أمثلة (سفعل) نسوق مثلا(سدل) أصلها (س ودال) و(سحت) أصلها (س وحت) وسحت الشيء استأصله من حت و(سطح) أصلها (س وطحا) وغيرها .

وإذا علمنا أن اللغة العربية سلخت من عمر الدهر مئات القرون أدركنا أنها خضعت بحكم هذا العمر المديد واتصالها باللغات واللهجات العربية الجاهلية لتطورات لغوية كثيرة ، لكن مما يؤسف له حقا أن مثل هذه التطورات لانتبينها بوضوح فى الآثار التى وصلتنا اللهم إلا ماجاءنا فى كتب اللغة أو الأدب

أو السير أو أيام العرب . ومرجع هذا الغموض الكتابة العربية فى مراحلها المختلفة سواء قبل الميلاد أوقبل الإسلام أو بعد الميلاد وبعد الإسلام وذلك لأن أبجديتنا أبجدية حروف صامتة واللغة العربية القرآنية مثلها مثل سائر اللغات العربية الجاهلية تكتفى بالحروف الصامتة وتهمل الحركات والإشارات الأخرى الدالة على الضغط والنبرة ، ومن هنا أصبح من الممكن أن كل عربى يقرأ النص فى لهجته الخاصة التى قد تكون مغايرة للهجة الأصلية التى ينتسب إليها هذا النص .

أما الحركات التى وجدت فهى متأخرة وقد وضعت فى الواقع لتطابق ضربا خاصا من ضروب الأدب العربى ألا وهو الشعر ، ومن ثم حملت فيما بعد على سائر الفنون ونسى المتقدمون أن ما يصدق على الشعر قد لايصدق على النثر ، وما يصدق على الضربين فى عصر من العصور قد لايصدق فى عصر آخر ؛ فالشاعر التميمى مثلا قد يضطره فن الشعر إلى فتح حرف المضارعة بينما يكسره فى لغته الخاصة. ومن هنا أصبحت هذه الحركات وقفاً على ضرب خاص من ضروب الأدب وليست عامة للغة العربية سواء كانت جاهلية أوقرآنية . والشىء الجدير بالذكر أنه لم يصلنا نص نعرف منه كيف نطقه صاحبه بل حتى القصيدة الشعرية لانعرف لها إلا هذا النطق التقريبى الذى تحدده لنا هذه الحركات المتأخرة وهو نطق يتفق وزمن نطقه ، ولايشترط أن يكون قديما ، والعكس أن هذا النطق الإسلامى حمل على الآثار الأدبية القديمة وكان يجب أن يفرق بين الحالين .

ولعل مخالفة الإملاء للنطق أحيانا مصدرها تطور نطق الكلمة أو تعدده، وهذه الظاهرة مشاهدة فى رسم المصحف الكريم والآثار الأدبية الأخرى سواء كانت عربية قرآنية أو جاهلية قديمة . ففى العبرية مثلا نجد (صان) أى (ضأن) فإنها تنطق (صون) ، وكذلك (راش) أى راس فإنها تنطق (روش) وهلم جرا ، لذلك لانستطيع الاستفادة من نظام الحركات فى العربية

لتأريخها ، وخير لنا أن نعتمد على الحروف الصامتة فقط ، ومن سوء الحظ أن عثمان بن عفان قضى على هذه الخلافات القبلية لحد كبير عندما أقدم على جمع القرآن تجنبا للاختلاف وقضاء على المنازعات . فعمل عثمان وإن كان قد أفاد الإسلام والمسلمين إلا أنه كان على حساب تاريخ تطور اللغة العربية. هذا مع مراعاة أن القرآن الكريم والشعر الجاهلى مثلا لن يقدما لنا صورة صادقة للغة العربية فى ذلك العصر كلغة شعبية كلغة معاملة وتخاطب إذ أن للشعر العربى لغته الخاصة كما أن للوحى لغته الخاصة أيضاً ، وما يستحب فى القرآن الكريم قد لايستحب فى الشعر مثلا فابن قتيبة يذكر أن ابن قيس الرقيات أنشد عبد الملك :

إن الحوادث بالمدينة قد أوجعننى وقرعن مروتيه
وجبيننى جب السنام ولم يتركن ريشا فى مناكبيه

فقال له أحسنت لولا أنك خنثت فى قوافيه ، فقال « ماعدوت كتاب الله ، (ما أغنى عنى ماليه هلك عنى سلطانيه) » .

لذلك لن نستطيع أن نقرر أن الظواهر اللغوية التى نجدها فى الشعر أو القرآن الكريم كظاهرة الإعراب مثلا هى ظاهرة عربية عامة لن يستخدمها الرجل العامى فى معاملاته اليومية ، وبتعبير أدق أن هذا النحو الذى حفظته لنا هذه الكتب التى بأيدينا ليس نحو اللغة العربية عامة بل نحو فن خاص من فنون الأدب العربى الرفيع ، بل وحتى الشعر العربى لوكان قد جاءنا كما هو لخرجنا منه بقواعد لاشك فى أنها تتعارض وكثير من القواعد التى يفرضها علينا النحو الرسمى . فرواة الشعر فى معظم الأحوال لم يروا لنا إلا نوعا خاصا من أنواع الشعر وهو الشعر النجدى أوما قيل فى لغة نجد الشعرية ، فابن قتيبة يذكر مثلا عند حديثه عن الشاعر عدى بن زيد العبادى « إن العرب لاتروى شعره لأن ألفاظه ليست بنجدية » .

ثم أين مراعاة قواعد النحو مثلا فى قول امرىء القيس :

فاليوم أشرب غير مستحقب اسما من الله ولا واغـــل

فجزم (اشرب)

وقال الآخر :

رحت وفى رجليك ما فيهما وقد بدا هنك من المئـــزر

أراد (هنك) بالرفع أعربه بالحركة فى حال الإضافة وهى لغة وسكنه تشبيها بعضد .

هذه بعض الأمثلة أشير إليها والحقيقة التى تجب الإشارة إليها هى أن قدسية القرآن الكريم حالت دون انتصار لغة الكثرة المطلقة من الناطقين بالعربية على لغة الشعر والنثر الفنى وذلك لأن هذا الانتصار لن يتم إلا على حساب القرآن الكريم لذلك اتسعت شقة الخلاف بين لغة الأدب الميتة ولغة الشعب الحية ، لكن حيث تنعدم هيمنة القرآن وسطوته تقوى لغة الشعب وتسود وتتبوأ مكانتها كلغة للعامة والخاصة وكلسان للأدب الشعبى وترجمان للقرائح الرفيعة الراقية كما هو مشاهد فى اللهجة العربية المالطية المسيحية . لكن ليس معنى هذا أن اللغة العربية الشعبية استسلمت لهذه اللغة الفنية بل كافحت ونجحت فى فرض نفسها وبسط سلطانها على الميادين التى كان يجب أن ترفرف عليها راية اللغة الأخرى . ففى الشعر ظهرت الفنون السبعة وفى التدوين ظهرت القصص الشعبية وما إليها .

* * *

وطن اللغة العربية القرآنية

سبق لى أن قررت أن اللغة العربية الشمالية خليط من لغات ولهجات والآن أقرر أن العربية الشمالية عبارة عن مجموعتين لغويتين عظيمتين ؛ مجموعة حجازية أوغربية أوكما تسمى أحيانا قرشية ، ومجموعة تميمية أوشرقية أوكما تسمى أحيانا نجدية .

أما لفظ حجاز فمعناه فى الأصل (الحبل) الذى يحجز به البعير ، والحجاز الجبال ، والحجاز مكة والمدينة والطائف ومخاليفها كأنها حجزت بين نجد وتهامة . ويذكر البكرى فى معجم ما استعجم عن الكلبى أن الحجاز ماحجز فيما بين اليمامة والعروض وفيما بين اليمن ونجد فصارت نجد ما بين الحجاز إلى الشام إلى العذيب والطائف من نجد والمدينة من نجد وأرض العالية والبحرين إلى عمان من العروض .

وتهامة ما ساير البحر منها مكة والعبر والطور والجزيرة ، ويذكر البكرى أيضاً نقلا عن عمر بن شبة أن الحجاز اثنتا عشرة دارا : المدينة ، وخيبر ، وفدك ، وذو المروة ، ودار بلى ، ودار اسجع ، ودار مزينة ، ودار جهينة ، ودار بعض بنى بكر بن معاوية ، ودار بعض هوازن ، وجل سليم ، وجل هلال .

أما نجد من بلاد العرب فهو خلاف الغور ، ويعتقد أن هذه المنطقة هى الوطن الأصلى للغة العربية الشمالية وأعلاه تهامة واليمن وأسفله العراق والشام وأوله من جهة الحجاز ذات عرق . وإذا مددنا خطا من الغرب إلى الشرق مبتدأ بجبل رضوى ومنتهيا فى الخليج الفارسى شمالا ، ومن تثليث غربا إلى البحرين شرقا لحصرنا وطن اللغة العربية القرآنية ، وهو أكثر من ثلث وأقل من نصف الجزيرة العربية . وإذا استثنينا الجهات البركانية فى هذا الإقليم خاصة فى نجد وجدنا أن سائر الأراضى صالحة للزراعة ، وقد عملت الحكومات المتعاقبة على إقرار البدو هناك وتشجيع الزراعة خاصة فى الإقليم الممتد بين (حايل) و (وادى الرمة) حيث توجد قرى عامرة بعضها قديم والبعض الآخر حديث .

أما الصقع الواقع جنوب وادى الرمة ويمتد غربا حتى حرة الحجاز ويخترقه الطريق من (حايل) إلى مكة فأحسن خصوبة وأكثر إنتاجا ؛ ففى هذا الصقع وفى الإقليم الآخر المتصل بالحجاز خاصة حول المدينة اتجه

اهتمام الدولة العربية الفتية فى القرن السابع الميلادى ؛ إذ نجد الخليفة الأموى معاوية يوجه اهتماما كبيراً إليه ويقيم فيه كثيراً من الاقطاعيات الزراعية التى عنيت خاصة بزراعة النخيل والحبوب ، وظل الأمر كذلك حتى جاء العباسيون فأهملوه لأسباب سياسية وأصبح عرضة لهجات البدو وخاصة فى القرن الرابع الهجرى مما اضطر السكان الأصليين خاصة بنى سليم وبنى هلال إلى الرحيل وخلفوا وراءهم بعض المدن والقرى مثل (ربذة) الواقعة جنوب شرق المدينة ، وبها عقد عام ٤١٦ م يوم التحالف الذى أرخت به العرب مايقرب من قرنين . ويحدثنا البكرى فى معجمه وابن سعد فى طبقاته وياقوت فى معجمه والهمدانى وغيره من المستشرقين أمثال (لندبرج) و (دوتى) و (فلهوزن) و (هوبرت) وغيرهم عن ماضى هذا الإقليم وحاضره سواء من الناحية التاريخية أو الجغرافية أو اللغوية .

فى هذا الوطن كما ذكرت نشأت اللغة العربية ، وفى هذا الوطن أيضاً تشعبت إلى مجموعتين لغويتين عظيمتين شرقية أو تميمية وغربية أوحجازية . فما هى تميم ؟

تميم قبيلة عربية تنسب إلى تميم بن مر بن اد بن طابخة بن الياس بن مضر وهنا يتصل تميم هذا بمضر ويصير له المكان الأول عند مضر ؛ لذلك يطلق اسمه غالبا على سائر المضريين أوسائر القبائل المضرية قيس وربيعةوأقرب القبيلتين إلى تميم هى ربيعة ، وليس معنى هذا أن صلة القرابة بين تميم وربيعة أقوى منها بين تميم وقيس بل وجه الصلة القوية بين تميم وربيعة هو وجه لغوى ؛ فمثلا جاء فى الحديث الشريف « الجفاء فى هذين الجفين ربيعة ومضر » .

ومصادرنا لدراسة تميم عربية فقط وذلك لأن المصادر اليونانية واللاتينية سكتت عن تميم الذين يبدأ تاريخهم بكثير من القصص والأساطير التى لايمكن أن تكون تاريخية حقيقية ، فياقوت مثلا يذكر فى معجمه ، وابن قتيبة فى

معارفه أن قبر صاحب الاسم الذى ينتسب إليـــه التميميون موجود فى (مران) ويذكر ابن دريد فى الاشتقاق أنه ولد لتميم ثلاثة أولاد زيد مناة وثمود والحرث .

أما التاريخ الحقيقى لهذه القبائل فلم يذهب أبعد من القرن السادس الميلادى ؛ ففى ذلك العصر بلغت تميم مركزاً ممتازاً جدا وعلا شأنها وارتفع قدرها ، فقد كانت تنزل شرق الجزيرة واستوطنت نجدا وجزءا من البحرين واليمامة وامتدت منازلها جنوبا حتى (دهناء) وشمالا شرقيا حتى الفرات ، وفى الشمال جاورت أسدا ، وفى الجنوب الغربى باهلة وغطفان . وقد اعتاد التميميون فى منازلهم مخالطة بعض عناصر قبائل عبد القيس وحنيفة خاصة فى الشرق والجنوب ، وبكر وتغلب فى الشمال .

وكانت تميم متبدية تؤثر حياة البداوة على الحضر وإن كانت قد نزلت (هجر الإحساء) والجرعاء للاتجار وفى المناسبات الخاصة .

ويحدثنا التاريخ أن منذر بن سارا صاحب هجر عقد مع النبى حلفا ، ويتجلى لنا من بعض أسماء الاعلام التميمية أن بنى تميم كانوا يقدسون اللاة ومناة والعزى وكذلك شمس التى كان ينطقها التميميون (شُمْس) بضم الشين وتسكين الميم . وكان يقوم بالسدانة بطن تيمى هوبطن (ينوأوس بن مخاشن) .

ومن أشهر القبائل التميمية التى انحدرت من (اد) ضب وعكل وتيم وعدى وثور ، كما نعلم من المصادر التى وصلتنا أن المسيحية شقت طريقها إلى بعض التميميين ووجدت عند بعضهم قبولا . وقد أطلق على أتباعها اسم (عباد) وكانوا يقيمون فى الحيرة وزعيمهم الشاعر المشهور عدى بن زيد .

والشىء الجدير بالملاحظة هنا أن ترامى أطراف منازل تميم أدى إلى تشعب القبيلة إلى بطون وأفخاذ ، ومع مرور الزمن أخذ كل فخذ يعتد بنفسه مما أدى إلى قيام خصومات وحروب ، ولا أدل على عنف هذه الخصومات من هذا النزاع القوى الذى قام بين جرير والفرزدق . فالشاعران تميميان ينتميان إلى بطنين مختلفين لكنهما ذهبا فى هجائهما بعيدا . إلا أننا يجب أن نفهم

أن هذه الخصومات لم تقف عقبة دون سيادة السلم فى تميم ، فصاحب الفهرست يحدثنا أن حلفا عقد بين بنى يربوع وبنى نهشل ، كما يظهر أن النسابة الشهير أبواليقظان سحيم بن حفص المتوفى عام ١٩٠ هـ وضع كتابا أطلق عليه (كتاب حلف تميم بعضها بعضاً)[١] .

ومن القبائل التميمية الأخرى التى جاءنا الكثير من أخبارها زيد مناة وعمرو ، ومن الثانية تشعبت الأنبار بينما تنقسم الأولى إلى سعد ومالك وإلى سعد تنتمى منقر وعطارد ، وإلى مالك ترجع حنظلة ودارم ، وتنقسم الأخيرة إلى بطون ، كما تفرعت عن حنظلة يربوع التى نشأت منها رياح وكليب — قبيلة جرير — ومن دارم نشأت نهشل ومجلشع — قبيلة الفرزدق .

وهناك حقيقة يجب التنويه بها ألا وهى أن الأخبار التى جاءتنا عن تميم وبطونها وأعمال أبطالها ومغامرات فرسانها يفوق ما تجمع لدينا خاصا بسائر القبائل العربية مجتمعة ، ولعل السر فى ذلك هو كثرة شعرائها ، فقد خرجت عدداً كبيراً منهم تركوا أشعاراً كثيرة كانت ومازالت ثروة عظيمة للغويين والمفسرين الذين كانوا يبحثون عن الأسانيد اللغوية والتاريخية لتدعيم آرائهم ، فلدينا مثلا الأيام وهى خاصة بتميم ، والفضل فى جمعها يرجع إلى أبى عبيدة ، كما نجد أياما أخر جمعها ابن الكلبى وهذه الأيام وغيرها نجدها فى شروح نقائض جرير والفرزدق والأغانى والعقد الفريد وابن الأثير .

ومن هذه الأيام نخرج بنتيجتين هامتين : الأولى العلاقات بين تميم وجيرانها من العرب خاصة بكر بن وائل ، والثانية العلاقات بين تميم وملوك الفرس الذين نجحوا فى بسط سلطانهم على بكر وتغلب وحاولوا بسط نفوذهم على تميم الذين كانوا خطراً شديدا يهددون طرق المواصلات الفارسية خاصة تلك التى كانت بين اليمن وبين مناطق نفوذهم فى شرق البلاد العربية .

ومن أخبار هذه الأيام نعلم أيضاً أن شابور الثانى أرسل حملة إلى

---

(١) راجع فهرست ابن النديم ، ص ٩٤ .

(هجر) ، كما عاقب كسرى الثانى القبائل التميمية لاعتدائها على قافلة فارسية كانت قادمة من اليمن إلى المدائن ، ولعل أشهر يوم بين تميم والفرس هو هذا اليوم الذى يعرف باسم يوم المشقر[1] وهو اسم حصن بالبحرين قديم قال المخبل :

فلئن بنيت لى المشقر فى صعب تقصر دونه العصم
لتتقبن عنى المنيـــة إن الله ليس كعلمه علم

وقال فيه لبيد يصف بنات الدهر :

وانزلن بالدومى من رأس حصنه وانزلن بالأسباب رب المشقر

ولما جاء الإسلام ظلت تميم كسائر القبائل العربية الشرقية بعيدة عنه حتى كتب للإسلام النصر وفرضت المدينة نفسها على قلب الجزيرة فأقدمت تميم وأرسلت فى العام الهجرى الثامن رسولا إلى المدينة فعقد مع النبى حلفا لكن يظهر أن إسلامهم كان سطحيا ، إذ سرعان مارتدوا عقب انتقال النبى (صلى الله عليه وسلم) إلى الرفيق الأعلى، واستردوا حريتهم وقامت تميم فى حركة الردة بدور هام إذ ظهرت فيهم النبية (سجاح) لكن نشاط خالد أرجع تميما إلى حظيرة الإسلام . ولم يمض زمن طويل حتى أخذت القبائل التميمية تكون وحدات الجيوش الإسلامية القوية التى اتجهت شرقا نحو فارس حيث عسكرت فى موضعى الكوفة والبصرة ، وفيما بعد تقدمت إلى خراسان وغزتها ثم استوطنتها . وكانت هذه العناصر التميمية هى الغالبة فى تلك الجهات وظل الحال كذلك حتى العصر العباسى .

وكانت تميم فى الإسلام مشهورة بالشجاعة وفنون الحرب شأنها فى الإسلام شأنها فى الجاهلية . ومن الجدير بالذكر أن النزاعات التى قامت فى العصر الأموى كانت تميم هى العنصر الهام فيها ولوأن التميميين لم يشتركوا فى حرب

---

(١) راجع الطبرى جـ ١ ، ص ٩٨٤ - ٩٨٨ (طبع الخارج) .

قيس وكلب إلا أنهم كانوا هم الخوارج ، فمنذ ظهور هذه الحركة وكانت زعامتها فى يد بنى تميم فزعيم الأزارقة قطرى بن الفجاءة ومعظم أنصاره كانوا من تميم ، كذلك خرج من هذه القبائل التميمية البطل المشهور ابراهيم ابن الأغلب فهو من فرع سعد بن زيد مناة ، وابراهيم هذا هو الذىكون أسرة الأغالبة فى أفريقية .

* * *

أما فيما يتعلق بلغة تميم فيجب أن نرجع بها إلى ماقبل الإسلام وقبل الميلاد وإن كانت لم تعرف قبل ذلك بهذا الاسم إذ لم يصلنا من الكتابات مايؤيد أن هذه اللغة التميمية التى سأعرض لها هنا لغة تميمية ، وكل ما نعرفه عنها أنها لغة عربية كانت معروفة لدى سكان بابل واشور ، ويرجح أن هذه اللغة هى لغة سكان الجزيرة فى ذلك الوقت أعنى وقت اتصال البابليين الأشوريين بسكان شرق الجزيرة .

وأقدم نصوص عربية وصلتنا هى تلك التى نجدها فى أسماء الاعلام الواردة فى البابلية الأشورية أعنى أسماء أسرة حمورابى — وهى ترجع إلى حوالى عام ٢٠٠٠ ق . م . ولما كانت معظم هذه الأسماء عبارة عن جمل أصبح من السهل اليسير فهم أوإدراك بعض القواعد النحوية للغة العربية واللغة العربية الشرقية بصفة خاصة ، أوما يعرف فيما بعد باللهجة التميمية . وقد وصلنا من دراسة هذه العبارات التميمية القديمة تجاوزاً إلى النتائج الآتية :

١ — الضمير المتصل للمتكلم هو(ى) مثل عمى أى شعبى أوقومى .

٢ — الضمير المتصل الغائب هو(و) مثل شموأى اسمه .

وهذه الظاهرة تذكرنا بالصيغة التى مازالت حية فى لغتنا اليومية الدارجة إذ يقال (اسمو) بالواو فقط .

٣ — الضمير المتصل للمتكلمين هو(نا) مثل آلنا أى الهنا .

كذلك من هذه الأسماء التى وصلتنا نتبين أن أداة النسب هى(و) أو (يو) . كما يلاحظ أن أكثر الصيغ استعمالا كانت (فعل) بفتح العين وأقلها (فعل) بكسر العين أوضمها . أما صيغة (افعل) فهى أكثر الصيغ وروداً خاصة من أسماء القبائل مثل(اخلم). كما عثر أيضاً على صيغة (مفعول) مما يدل على قدمها فى اللغة .

وفيما يتصل بصيغ الأفعال ، فقد عثرنا على وزن (فعل) فى مثل صدق كما نجد المضارع (يفعول) مثل يعقوب و(يفعل)مثل ينتن أى يعطى ويملك، وهناك نجد صيغة (فعال) مؤنث (فعل) مثل لحم ومؤنثه لحام (اسم الهين أكاديين) . كما عثر أيضاً على وزن (فعالة) مثل تهامة وهى إحدى المعبودات البابليات الأشوريات . ويستخدم هذا اللفظ فى الأكادية للتعبير عن(بحر) وهو مؤنث لفظ(تهم) .

وقد ذكر النحويون واللغويون كثيراً من خصائص اللهجة التميمية فأحمد ابن فارس يذكر فى الصاحبى فى(باب اللغات المذمومة) شيئا كثيراً من خصائص التميمية ، فهو يتحدث عن(عنعنتها) وإلحاقها القاف باللهاة . ويذكر السيوطى فى الفصل الثانى من مزهره فى معرفة الفصيح من العرب عن أبى نصر الفارابى أنه ذكر فى أول كتابه المسمى بالألفاظ والحروف : «كانت قريش أجود العرب انتقادا للأفصح من الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق وأحسنها مسموعا وأبينها إبانة عما فى النفس ، والذين عنهم نقلت اللغة العربية وبهم اقتدى وعنهم أخذ اللسان العربى من بين قبائل العرب هم قيس وتميم وأسد فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه وعليهم اتكل فى الغريب وفى الاعراب والتصريف ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم ، وبالجملة فانه لم يؤخذ عن حضرى قط ، ولاعن سكان البرارى ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم فإنه لم يؤخذ لامن لخم ولامن جذام لمجاورتهم أهل مصر والقبط ، ولامن قضاعة وغسان واياد لمجاورتهم أهل الشام وأكثرهم

نصارى يقرأون بالعبرانية ، ولامن تغلب واليمن فانهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان ، ولامن بكر لمجاورتهم للقبط والفرس ، ولامن عبد القيس وازد عمان لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس ، ولامن أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة ، ولامن بنى حنيفة وسكان اليمامة ، ولامن ثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم ، ولاعن حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدأوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم ، والذى نقل اللغة واللسان العربى عن هؤلاء وأثبتها فى كتاب فصيرها علما وصناعة هم أهل البصرة والكوفة فقط من بين أمصار العرب انتهى » :

والواقع أن بنى تميم هم الذين حافظوا على العربية القديمة الصحيحة شعراً ونثراً وخطابة وذلك بسبب ظهور كثيرين من الشعراء . أمثال أوس بن حجر وفيه يروى ابن قتيبة عن أبى عمرو بن العلاء أنه قال : « كان أوس شاعر مضر حتى أسقطه النابغة ، وزهير فهو شاعر تميم فى الجاهلية . ومن شعرائها أيضاً سلامة بن جندل وقد كان أيضاً من فرسان تميم المعدودين ، وسليك بن سلكة ، وعبدة بن طبيب ، وعدى بن زيد ، ومالك ومتمم ابنا نويرة وغيرهم » :

وفى العصر الأموى نجد غير جرير والفرزدق البعيث وكثير وثابت قطنه والعجاج ورؤبة . والشىء الجدير بالذكر أن المعاجم التى وصلتنا وكثيراً من المصادر العربية القديمة تقرر أن اللغة التميمية هى اللغة التى عليها الكثرة المطلقة من أبناء اللغة العربية مما يؤيد أن قواعد هذه اللغة يجب أن تكون هى القواعد الصحيحة للغة العربية ، ومن أمثلة هذه الإشارات التى وصلتنا ما جاء فى لسان العرب (ج ٢٠ ص ٢٨٣) : « وزعم سيبويه أنهم يقولون تقى الله رجل فعل خيراً يريدون اتقى الله رجل فيحذفون ويخففون . قال وتقول انت تتقى الله (بفتح التاء الأولى) وتتقى الله (بكسرها) على لغة من قال تعلم (بفتح التاء) وتعلم (بكسرها) وتعلم بالكسر لغة قيس وتميم وأسد وربيعة وعامة العرب . وأما أهل الحجاز وقوم من أعجاز هوازن وأزد

السراة وبعض هذيل فيقولون تعلم (بفتح التاء) والقرآن عليها . قال وزعم الأخفش أن كل من ورد علينا من الأعراب لم يقل ألا تعلم بالكسر قال نقلته عن نوادر أبي زيد» .

ويحدثنا سيبويه فى أكثر من موضع عن وجوه الخلاف بين تميم والحجاز ويذكر كيف يراعى التميميون القياس وكيف أن لغتهم هى لغة العرب حقا ، من ذلك ما جاء فى باب ماتكسر فيه أوائل الأفعال المضارعة .. وذلك فى لغة جميع العرب إلا أهل الحجاز[1].

ويذكر ابن جنى فى خصائصه : (جـ ١ ص ١٣٠) : «وإن شذ الشيء فى الاستعمال وقوى فى القياس كان استعمال ماكثر استعماله أولى وإن لم ينته قياسه إلى ما انتهى إليه استعماله . من ذلك اللغة التميمية فى (ما) هى أقوى قياسا وإن كانت الحجازية أسير استعمالا ، وإنما كانت التميمية أقوى قياسا من حيث كانت عندهم كـ (هل) فى دخولها على الكلام مباشرة كل واحد من صدرى الجملتين الفعل والمبتدأ كما أن (هل) كذلك ، إلا أنك إذا استعملت أنت شيئا من ذلك فالوجه أن تحله على ماكثر استعماله وهو اللغة الحجازية ، ألا ترى أن القرآن بها نزل . وأيضاً فمتى رابك فى الحجازية ريب من تقديم خبر أو نقض النفى فزعت إذ ذاك إلى التميمية فكأنك من الحجازية على حرد وان كثرت فى النظم والنثر» .

وأفرد السيوطى فى المزهر بابا أطلق عليه : ذكر ألفاظ اختلفت فيها لغة الحجاز ولغة تميم : جاء فيه وقال أبومحمد يحيى بن المبارك اليزيدى فى أول نوادره: أهل الحجاز برأت من المرض وتميم برئت . أهل الحجاز أنا منك براء وتميم وسائر العرب أنا منك برىء واللغتان فى القرآن . أهل الحجاز يخففون الهدى يجعلونه كالرمى وتميم يشددونه يقولون الهدى كالعشى والشقى.

---

(١) راجع سيبويه ، جـ ٢ ، ص ٢٧٥ - ٢٧٧ (طبع أوربا) .

أهل الحجاز قلوت البر وكل شيء يقلى فأنا أقلوه قلوا وتميم قليت البر فأنا أقليه قليا » :

ويقول ابن عقيل فى شرحه لقول ابن مالك :

وبأولى أشر لجمع مطلقا والمد أولى ولدى البعد انطقا

وفيه لغتان المد وهى لغة أهل الحجاز والقصر وهى لغة بنى تميم .

وكذلك يفهم الخلاف القائم بين الضميرين المتصلين (هو) و(ه) و(هى) و(ه) فى مثل قوله تعالى فى سورة الأعراف الآية الثامنة بعد المائة وسورة طه الآية السابعة (فإنه) والقصص الآية التاسعة والعشرون (بأهله) . وقد عرض سيبويه[1] لهذه الظاهرة « فأما الذين يشبعون فيمططون وعلامتها واو وياء . وهذا تحكمه المشافهة وذلك قولك ... ما منيك (عوضا عن ما منك) : وأما الذين لايشبعون فيختلسون اختلاسا » .

وتقول تميم أيضاً (اكف الحمار شد عليه الاكاف) ويقول الحجازيون (أوكف) .

وغير المد والقصر توجد هناك فروق عديدة بين المجموعتين اللغويتين الشماليتين التميمية والحجازية قد أعود إليها إن شاء الله .

---

(١) راجع سيبويه ، ج ٢ ، ص ٣٢٤ (طبع أوربا) .